

تفسير البحر المحيط

@ 547 كما يفعل المتكلمون من أهل العدل والتوحيد ، وغلو باطل وهو أن يجاوز الحق ويتعداه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه كما يفعل أهل الأهواء والبدع انتهى . وأهل العدل والتوحيد هم أئمة المعتزلة ، وأهل الأهواء والبدع عندهم أهل السنة ، ومن عدا المعتزلة . ومن غلوا اليهود إنكار نبوة عيسى ، وادعاؤهم فيه أنه [] . ومن غلوا النصارى ما تقدّم من اعتقاد بعضهم فيه أنه [] ، وبعضهم أنه أحد آلهة ثلاثة . وانتصاب غير هنا على الصفة أي : غلوًا غير الحق . وأبعد مَن ذهب إلى أنها استثناء متصل ، ومن ذهب إلى أنها استثناء ويقدره : لكن الحق فاتبعوه . .

{ وَلَا * تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ } هؤلاء القوم هم أسلاف اليهود والنصارى ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم كثيرًا ، ثم عين ما ضلوا عنه وهو السبيل السوي الذي هو وسط في الدين وهو خيرها فلا إفراط ولا تفريط ، بل هو سواء معتدل خيار . وقيل : الخطاب للنصارى ، وهو ظاهر كلام الزمخشري قال : قد ضلوا من قبل هم أئمتهم في النصرانية كانوا على الضلال قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم) ، وأضلوا كثيرًا ممن شايعهم على التثليث ، وضلوا لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم) عن سواء السبيل حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه . وقال ابن عطية : هذه المخاطبة هي للنصارى الذين غلوا في عيسى ، والقوم الذين نهى النصارى عن اتباع أهوائهم والذي دعا إلى هذا التأويل أن النصارى في غلوهم ليسوا على هوى بني إسرائيل ، بل هم في الضد بالأقوال ، وإنما اجتمعوا في اتباع موضع الهوى . فالآية بمنزلة قولك لمن تلومه على عوج : هذه الطريقة طريقة فلان تمثله بآخر قد اعوج نوعًا من الاعوجاج وإن اختلفت نوازله . ووصف تعالى اليهود بأنهم ضلوا قديمًا ، وأضلوا كثيرًا من أتباعهم ، ثم أكد الأمر بتكرار قوله : وضلوا عن سواء السبيل . وذهب بعض المتأولين إلى أن المعنى : يا أهل الكتاب من النصارى لا تتبعوا أهواء هؤلاء اليهود الذين ضلوا من قبل أي : ضل أسلافهم ، وهم قبل مجيء محمد صلى الله عليه وسلم) ، وأضلوا كثيرًا من المنافقين ، وضلوا عن سواء السبيل الآن بعد وضوح الحق انتهى . ولا حاجة لإخراج الكلام عن ظاهره من أنه نداء لأهل الكتاب طائفتي : اليهود ، والنصارى . وأن قوله : ولا تتبعوا أهواء قوم ، هم أسلافهم . فإن الزائغ عن الحق كثيرًا ما يعتذر أنه على دين أبيه وطريقته ، كما قالوا : { بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ سَبِيلٍ كَمَا سَبَّلَ اللَّهُ النَّبِيَّ الْمُرْسَلِينَ كَذِبًا وَأَعْتَابًا وَإِنَّا لَكَنَّا عَلَيْهِمْ آلِفٌ مَّرْكُومَةٌ } . وكان في تنكير قوم تحقير لهم . وما ذهب إليه الزمخشري تخصيص لعموم من غير داعية إليه . وما ذهب

إليه ابن عطية أيضاً تخصيص وتأويل بعيد في قوله : ولا تتبعوا أهواء قوم أن المراد بهم اليهود ، وأن المعنى : لا تكونوا على هوى كما كان اليهود على هوى ، لأن الظاهر النهي عن اتباع أهواء أولئك القوم . وأبعد من ذهب إلى أن الضلال الأول عن الدين ، والثاني عن طريق الجنة . .

{ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا° مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ * دَاوُدُ * وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ } قال ابن عباس : لعنوا بكل لسان . لعنوا على عهد موسى في التوراة ، وعلى عهد داود في الزبور ، وعلى عهد عيسى في الإنجيل ، وعلى عهد محمد في القرآن . وروى ابن جريج : أنه اقترن بلعنهم على لسان داود أن مسخوا خنازير ، وذلك أن داود مرّ على نفروهم في بيت فقال : من في البيت ؟ قالوا : خنازير على معنى الاحتجاب ، قال : اللهم خنازير ، فكانوا خنازير . ثم دعا عيسى على من افتري عليه وعلى أمه ولعنهم . وروي عن ابن عباس : لعن على لسان داود أصحاب السبت ، وعلى لسان عيسى الذين كفروا بالمائدة . وقال أكثر المفسرين : إن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت قال داود : اللهم العنهم واجعلهم آية ، فمسخوا فردة . ولما كفر أصحاب عيسى بعد المائدة